

## التجريب في رواية الزلزال للطاهر وطار

### ملخص الرواية:

رواية الزلزال، رواية تاريخية شخصية، ترصد الواقع الجزائري المعيش غداة الاستقلال، أو السنوات الأولى للاستقلال في تلك الفترة التي نهجت فيها الجزائر طريق الاشتراكية وها هي الحكومة تصدر قانون الثورة الزراعية كأول مخطط للاشتراكية الواقعية، و الذي يقضي بانتزاع الأرض من الملاك الكبار الذين لا يفلحونها لتصبح ملكا للجميع بعدما كانت حكرا على فئات إقطاعية متخمة .

و ما عبد المجيد بو الأرواح إلا واحد من هؤلاء، فهو مالك لأرض تقدر ب 3000 هكتار بقسنطينة، وفي نفس الوقت يشغل منصب مدير بالعاصمة مدة طويلة لم يقم بزيارة قسنطينة فبو الأرواح من عائلة إقطاعية أبا عن جد ومشهور بولائها للسلطة الاستعمارية

وقد أراد بو الأرواح المقيم بالجزائر أن يتدارك أرضه قبل أن تفرق على الرعاع كما يقول و قرر بالمقابل توزيعها على ورثته وذلك لأنه كان عقيما لا يملك أبناء وهكذا قصد بو الأرواح قسنطينة وعند وصوله يندهش للوضع الذي آلت إليه قسنطينة أصبح المكان ينذر بالزلزل كل شيء في قسنطينة تغير عنما بدأ يومه القسنطيني يدخله من باب القنطرة، هناك يتذكر الإمام عبد الحميد ابن باديس و انطلاق من هذا الموقف يبدأ الكاتب في سرد الأحداث على لسان بو الأرواح، و الزلزال الحقيقي يبدأ من هنا، لقد تسببت الهجرة الداخلية نحو قسنطينة في ظهور عدة أزمات كالتسول و الفوضى السكنية، و زيادة الولادات و انتشار الشعوذة و البطالة و الروائح المخرقة، كل هذا تسبب في تضخم مزيلة بولغرايس أو مملكة الفقراء، وسط هذا الجو المعكر ستبدأ رحلة بو الأرواح في البحث عن أقاربه و أولهم 'مار ثم عيسى و الطاهر و الرزقي البرداعي و عبد القادر الغر ابلي و خلال ذلك يقف بو الأرواح على جسور قسنطينة السبعة، وخلال كل وقفة تعود به الذاكرة إلى مجموعة من الأيام الخوالي حينما كانت قسنطينة فعلا كما يقول وهنا يطل واقع هو واقع ما بعد الاستقلال، فالطاهر ابن أخيه يتحول إلى ضابط في الشرطة و عمار صهره الذي كان عميلا للسلطات الفرنسية هو

شهيد، اندهش بو الأرواح لكنه سلم بالأمر الواقع وواصل بحثه عن البقية، في كل ركن و في كل حارة، وفي كل شارع كان يتراءى له الماضي كل شيء تغيير وحتى إسماعيل و الشيخ نينو يتحولان من عليه القوم غداة الحرب إلى أسفله بعد الاستقلال، وهنا يحتاج عبد المجيد بو الأرواح لما آل إليه صحبه من سادة القوم إلى عبيدها، ورغم هذا الاندهاش لم يسن المهمة التي جاء من أجلها، و يستاء أكثر عندما يعلم بمآل شيخ سيدي و مقدم، و يزداد الاندهاش عندما يعلم بمآل الغرابلي و البرادعي فبعد تصليح الغرابلي أصبح أستاذا في الثانوية و الآخر لم يكن أقل حظا منه ليتحول بدوره إلى إمام، بعد كل هذه التناقضات المفزعة، يعود بنا القاص من خلال الفلاش باك إلى الحياة السابقة لبو الأرواح، تلك الحياة الإقطاعية المتوارثة فالأغا بو الأرواح ملك السلطة و مارسها كما يمارس كل حاكم سلطته، أكل حقوق الفلاحين و تجبر و تزوج و قتل دون أن يحاسبه أحد، ابنه في حقيقة الأمر كان صورة أخرى لأغا أبيه فعبد المجيد بو الأرواح كان نتاجا لمورث من المتناقضات، إنه ذلك البدوي في شكله الحضري، و هو اعلم في بطاقة هويته، الإقطاعي في عاداته، الإقطاعي إلى أبعد الحدود الممكنة، إنه ذلك الذي تزوج من الأم و ابنتها فقتل الأولى، و ألحق الثانية في ما بعد، ولم يكتفي بذلك فتزوج الثالثة و رابعة و كانت يهودية، تدفعه في ذلك مصلحته المادية و تشاء الأقدار أن يعاقب بو الأرواح بالعقم الأبدي، وعندما يصل بو الأرواح إلى جسر الهواء تتداخل الأفكار و تتصادم الهواجس، فيصاب بنوع من الهستيريا الجنونية، تدفعه إلى الانتحار، و التخلص من هذا الواقع الجديد، الغريب عنه، لكن و لحسن حظه يتداركه الناس في آخر لحظة، ليكتب له عمر جديد ربما هو إشارة إلى أنه أن هذه الطبقة لازالت حاضرة رغم انحدارها و انحصارها، إلا أنها لازالت متواجدة .

**دراسة الرواية:**

تحاول الزلزال أن تجسد التحولات الزراعية التي حدثت في الجزائر لا بالشكل السياسي التهريجي المباشر ،و إنما بأسلوب جمالي يستوعب الواقع المتحرك بكل تناقضاته الثانوية و الجوهرية.

و يريد المؤلف أن يصف الآثار التي خلفتها حرب التحرير في قسنطينة و قد اختار القاص هذه المدينة التقليدية الدينية والزراعية ليكون الوصف أكثر عمقا ،واستعمل لذلك شخصية غير عادية لم تكن تعيش المأساة الوطنية اختار لها شخصية من سكان العاصمة ،شخصية موظفة،مرموقة ،في الوزارة وذات حنين إلى الماضي الذي عاشته في قسنطينة كما أنها من دعاة الحركة الإصلاحية .

ولم يأت هذا الزائر بعد غياب طويل كزائر ،مشتاق ،بل أتى مدبرا ،محتالا، ويعد أبو الأرواح ،هذا نموذجا للإقطاعي الذي يعيش أواخر أيامه قبل تطبيق ميثاق الثورة الزراعية بمدينة قسنطينة ،كونه أحد أكبر أبناء الملاك ،فإنه ورث الأخلاقيات التقليدية ،ومن خلال سماعه لقرار الثورة الزراعية القاضي بتأميم الأراضي التي لا يفلحها أصحابها ،يبادر إلى لعب أوراقه الأخيرة قبل أن يمسه القرار ،ينزل إلى مدينة قسنطينة بعد فراق ،ويبحث عما تبقى من أهله وأقاربه ليقسم عليهم الأرض.

ف نجد أن الصورة الخلقية للشخصيات التي سيقصدها فقيرة وعانت من مشاكل عديدة بسببه) الأول أخذ منه مبنى أرضه، الثاني وشى به إلى المستعمر، الثالث أخذ منه أرضية مقايضة، هكذا...).

وفي رحلة بحثه عن حليف في محنته في يجد أن مدينة قسنطينة قد تغيرت ،وهنا يشعر بو الأرواح بزلزال ،و تعود إلى مخيلته الجرائم التي ارتكبها في زوجاته كما فعل أبوه الذي كان يراها أفعالا عادية.

وبعد سلسلة الفشل التي لحقته ينزل للجسر المعلق محاولا الانتحار بعدما أصابته حالة من الهستيريا لكنه ينقذ في آخر لحظة.

وإذا بحثنا عن بعض الخصائص التي احتوتها الرواية، فإننا نجد ما يلي:

• محاولة البطل المستميتة للاحتفاظ بأرضه، تجاه قوانين الإصلاح الزراعي، الأرض فوق كل اعتبار.

• الاعتماد على الحكم و الأمثال الشعبية.

• حاسة الشم تطغى على باقي الحواس في قسنطينة، و في هذا الحيز من الكون تحولت الأصوات و الملامح إلى روائح، إنها ظاهرة لاحظها الشيخ بو الأرواح، عند وصوله إلى عتبة باب هذه المدينة العتيقة التي لم يزرها منذ زمن طويل.

وهذا التكرار يدل على أن الكاتب كان يرمي إلى ربط لهفة الشيخ بلهث الكلب المعور الذي كان يقضي ما تبقى من حياته بحثا عن الفريسة

• الظاهرة الأخرى الملاحظ انشغال الشيخ بو الأرواح بمقولة ابن خلدون الشائعة عن الأعراب، فمرة يرفضها على اعتبار أن التاريخ يكذبها حيث أن الجزائر العربية حاربت فرنسا التي أرادت أن تخلع عنها ثوب العروبة، و تندسها ثوب الكفر و الإلحاد، ومرة أخرى نراه يندم ويتحسر عن زمن فرنسا، وذلك الزمن الذي كانت فيه الحياة تفوح برائحة الياسمين و وعطر حلم الذهب.

فما حدث لهذه المدينة بعد خروج فرنسا و استرجاعها لعروبتها جعل الشيخ ينحاز إلى مقولة ابن خلدون .

• يتدرج في خيال الشيخ بو الأرواح، إحساس غريب، فهو من جهة متيقن بأن زمن العروبة الذي تعيشه اليوم هذه المدينة أفضل من زمن الكفر في عهد فرنسا، ولكنه من جهة أخرى لا يعجبه لما آلت إليه أحوال المدينة من تدهور، مما جعله يقف حيرانا ويتساءل في صمت هل صحيح أن العربي يبني بيد و يخرب بأخر؟ غير أن الشيخ سرعان ما ينتبه إلى الفرق

الموجود بين صنفين من المواطنين الذين خلفوا الاستعمار في هذه المدينة، فهما ما تنطبق عليهم مقولة ابن خلدون، لا تفرق بين الصالح و الطالح بين التعمير و التخريب .

• الظاهرة الثالثة التي تغطي على الظواهر الأخرى تتمثل في إحساس الشيخ المتواصل باقتراب الزلزال و ترصده للمدينة فقد تكرر في الرواية ما شخص هول الزلزال مرات عديدة، ومن المعروف من أن الإحساس بالخطر أهدح و أصعب من حدوث الخطر نفسه، و حكمة الله في إخفاء أجل المكروه، هو أن حدوث الخطر نفسه أهون من الإحساس به، لأن الإحساس به يجعل الناس يسابقون الوقت لريح الدقائق التي مازالت لهم كالمحكوم عليهم بالإعدام فالزلزال الحقيقي إحساس، و الشيخ بو الأرواح يدرك هذه الحقيقة، ويعرف أن الزلزال بدأ يهل في الأفق منذ أن حل النقيض، أي يوم بدأ الدعاة و الحفاة والرعاة يدخلون من الريف والقرى ليقتلوا الأسياد، و تؤكد الرواية أن بو الأرواح قد بذل كل جهده لمواجهة هو الزلزال، وحاول أن يتهرب من عواقبه باللجوء إلى الحيل القانونية، علها تجعله ينجو من مخالب الزلزال، تمثلت في بحثه المضني عن أقارب له، ينسب إليهم أملاكه حتى يجنبها شرور قرار التأميم، ويضمن عدم اقتراب يد الحكومة منها، و لكن بحثه باء بالفشل، و هو مازاد في تخوفاته من الزلزال الذي ما انفك يدغدغ شعوره حتى يجعله يستعجل قدومه ليقتضي عليه وعلى من يريد أخذ أرضه عملاً بالدعاء اليهودي "علي وعلى أعدائي" فأراد أن يرمي بنفسه من فوق جسر الهواء لكنه فشل .

• أما الظاهرة الرابعة: التي قلما يشعر بها القارئ على رغم أن خيوطها تخللت حبل صفحات هذه الرواية فهي ذلك الشعور المسبق بالخيبة الذي ظل ينتاب بو الأرواح طيلة مسيرة بحثه عن أقاربه و الذي كان يتبعه إحساس بنوع من التعب الرهيب...شعر بإحساس غريب يملأ نفسه حتى أنه فكر

### بعض خصائص الرواية:

- محاولة البطل المستميتة للاحتفاظ بأرضه تجاه القوانين الإصلاح الزراعي .

• الاعتماد على الحكم والأمثال الشعبية.